إثبات الكلام لله تعالى

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧]، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢]، {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [المائدة: ١١٦]، {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥]، {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤]. {مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ} [البقرة: ٢٥٣]. {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: ١٤٣]. {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: ٥٢]. {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الشعراء: ١٠]. {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} [الأعراف: ٢٢]. {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [القصص: ٦٢]. {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٦٥]).

(الشرح)

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بكلام حقيقي؛ بحرف وصوت، لا يشبه كلام المخلوقين، وأن كلامه صفة ذاتية فعلية؛ ذاتية، باعتبار أصل الصفة، وفعلية، باعتبار آحادها وأفرادها؛ فهو سبحانه يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بكلام حقيقي يسمعه من شاء من خلقه، وأن كلامه، سبحانه وتعالى، حُروف ومعان؛ لا الحُروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحُروف.

وقد دلل المصنف –رحمه الله–على ذلك، بأدلة متنوعة:

قوله: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}: هذا استفهام يُراد به النفي؛ أي: لا أحد أصدق من الله قِيلًا؛ والصدق: مُطابقة الخبر للواقع، والشاهد من الآية: {قِيلًا}، إذ القول هو الكلام باتفاق، فمن أثبت القول لله، تبارك وتعالى، فقد أثبت له الكلام.

قوله: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}: استفهام يُراد به النفي؛ أي: لا أحد أصدق من الله حديثًا، والحديث هو الكلام؛ فمن أثبت له الحديث، فقد أثبت له الكلام.

قوله: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}: جُملة مقول القول مكونة من حُروف وأصوات، فهي تدل على أن كلام الله حرف وصوت، بنص القرآن، كما تدل على أن كلامه مُتعلق بمشيئته، فإن ذلك يكون يوم القيامة؛ فالله يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء.

قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}: أضاف الكلام إلى نفسه، سبحانه وتعالى، مما يدل على أنه صفته، وذلك أن المُضاف إلى الله تعالى له حالان:

- فإن كان عينًا قائمًا بنفسه، فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كقوله: {نَاقَةُ اللَّهِ} [الأعراف: ٧٣]، وقوله: {عَبْدُ اللَّهِ} [مريم: ٣٠]، وقوله: {إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ} [العنكبوت: ٥٦]، وقولنا: بيت الله، وكعبة الله، وليس صفة، وإضافته إلى الله تبارك وتعالى إضافة تشريف، أو إضافة خلق.

- أما إن كان المضاف إلى الله لا يقوم بنفسه؛ كالكلام، والسمع، والبصر، فهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقوله تعالى في حديث الشفاعة: (وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[١]

قوله: {صِدْقًا وَعَدْلًا}: صدقًا في أخبارها، وعدلًا في أحكامها. والكلام نوعان:

- **خبر**: ما يمكن أن يوصف بالصدق أو الكذب لذاته، لا باعتبار المخبِر به، كقول القائل: جاء زيد.

- **إنشاء**: ما لا يمكن أن يوصف بالصدق أو الكذب. مثل: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة: ٤٣].

قوله: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}: هذه الآية من أوضح الأدلة على إثبات صفة الكلام لله عز وجل، إذ أن الله تعالى أسند الكلام إلى نفسه، وأكده بالمفعول المطلق.

فـ{اللَّهُ}، سبحانه، هو المتكلِّم، و{مُوسَى}، عليه السلام، هو المكلّم، و{تَكْلِيمًا} مفعول مُطلق مؤكد لعامله.

وقد شرق بها منكرو الصفات، وحاولوا تحريفها عن ظاهرها تحريفًا لفظيًا بتغير الشكل، كما تقدم، وحاولوا أن يستنطقوا أبا عمرو بن العلاء، أحد القراء السبعة، أن يقرأ لهم لفظ الجلالة منصوبًا، ليجعلوا الله مكلَمًا، لا مُتكلّمًا، فأبى، وقال للمبتدع: فما تصنع، يا ابن اللخناء، في قول الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: ١٤٣]؟

قوله: {مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ}: من الرُسل، {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ} [البقرة: ٢٥٣]، مثل موسى بن عمران، ولهذا يُقال: موسى الكليم، كلمه الله كفاحًا في الطور، ولفظ الجلالة: فاعل مرفوع؛ فهو المكلمِّ سبحانه.

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٧٥١٠)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٩٣).

قوله: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا}: ميقاته هو الموعد المذكور في قوله: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} [الأعراف: ١٤٢]

قوله: {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}: هذا دليل صريح على إثبات كلام الله عز وجل، ودليل أيضًا على أن كلامه مُتعلق بمشيئته، لأن ثَمَ حدثان: المجيء، والتكليم. فكل عربي يُدرك أن المجيء وقع أولًا، ثم تلاه الكلام. فالكلام حدث بعد المجيء. وأهل البدع يزعمون أن هذا الحدوث نقص في حق الباري، ويقولون: حصل له وصف بعد أن لم يكن! وغفلوا عن أمر مهم، وهو أن الكلام قديم النوع حادث الآحاد، فأصل الصفة قديم، وآحادها وأفرادها متجددة، ولا يُقال: حدثت بعد أن لم تكن. كيف وقد قال سبحانه بنفسه: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء: ٢]، وقال: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ} [الشعراء: ٥].

ومقتضى الكمال أن يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء، ونفي ذلك منافٍ للكمال؛ فإنه يستلزم وصفه بالخرس، تعالى عن ذلك، ولهذا دلّل الله على بطلان عبادة العجل بقوله: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ} [الأعراف:١٤٨]، والذي يتكلم إذا اقتضى المقام الكلام أكمل من الأخرس الذي لا يتكلم، وكما أنه سبحانه: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: ١٠٧]، [البروج: ١٦]، وفعله بقوله، كما قال: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠]؛ فذلك يقتضي أنه يتكلم متى أراد.

قوله: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}: دلت هذه الآية على أن كلام الله له تصرفات؛ فتارة يكون نداءً، وتارة يكون مُناجاة؛ والمناداة: الصوت لمن بعُد، والمناجاة: الصوت لمن قرُب؛ فحين كان موسى، عليه السلام، بعيدًا نُودي، فلما قرُب نُوجي، والطور: جبل معروف في جنوب سيناء، وقيل غير ذلك.

وصفه بالأيمن هنا بالنسبة لموسى حين أقبل عليه، فإن كل شيء يُمكن أن يكون له يمين ويسار باعتبار الجهة التي يُرصد منها؛ فأنت إذا أقبلت على شيء من جهة صار جانبه الأيمن ما يلي يمينك، وإذا جئت من الجهة المقابلة صار العكس؛ فالمقصود الأيمن بالنسبة لموسى عليه السلام.

قوله: {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}: دلت على فضل موسى عليه السلام واختصاصه بكلام الرب مُناداة ومُناجاة، ودلت على تصرف كلام الرب، وأنه كلام حقيقي مسموع.

قوله: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}: {إِذْ}: تدل على الظرفية، مما يدل على أنها مُتعلقة بمشيئته. والمنادي هو الله، والمنادى موسى عليه السلام، و{الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}: وهم قوم فرعون، {أَلَا يَتَّقُونَ}: أي لعلهم يتقون.

قوله: {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ}: المناديان: هما الأبوان عليهما السلام، آدم وحواء، بعد أن أكلا من الشجرة المحرم قربانها؛ فسمع الأبوان بأُذنيهما كلام الباري، سبحانه، وعتابه.

هذا ما يفهمه كل قارئ للقرآن باقٍ على فطرته السوية، وسليقته العربية، أما من احتوشته البدع، وضللته الأهواء، فقد أغرب في المقالات والتأويلات، وزعم أن الله تعالى لم يتكلم بكلام حقيقي صادر منه، وإنما خلق حُروفًا وأصواتًا في جو الجنة، سمعها الأبوان، لتعبر عن المعنى القديم القائم بنفسه!، وخلق حُروفًا وأصواتًا في الشجرة، سمعها موسى عليه السلام، لتُعبر عن المعنى القديم القائم في نفسه!

فالحقيقة أنهم لم يثبتوا كلام لله؛ فإن كلام الله عندهم هو المعنى القديم القائم في نفسه، وأما الصوت المسموع فمخلوق؛ فجعلوا الكلام المعاني دون الحروف والأصوات؛ كأنه بمعنى العلم فقط.

والعرب لا تُسمي كلامًا إلا المعنى المعبرٌ عنه بحروفٍ وصوت؛ فلا يُقال: تكلم فلان، إلا إذا نطق؛ ولهذا لا يُعد الطلاق طلاقًا، ولا العِتاق عتاقًا، ولا الوقف وقفًا، بمجرد حديث النفس حتى يلفظ به؛ فلو أن إنسانًا خطر في باله أنه طلق زوجته؛ لم تطلق حتى يقول: أنتِ طالق، ولو أن إنسانًا فكر أن يُعتق عبده، وجال في خاطره: عبدي عتيق لوجه الله؛ لم يعتُق حتى يقول: أنت حر لوجه الله، ولو أراد أن يُوقف بيته أو بُستانه، لم يثبت وقفًا بحديث النفس حتى ينطق بذلك؛ فالكلام مجموع الأمرين: المعنى واللفظ. ولو أطلق على حديث النفس قولًا فإنه لا بد أن يقيد بذلك، كما في قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ} [المجادلة: ٨].

فهل يظن ظان أن أحدًا من الصحابة الكرام، أو التابعين لهم بإحسان، فهم من مناداة الله تعالى للأبوين: {أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} [الأعراف: ٢٢] أن هذا المسموع حُروف وأصوات خلقها الله في جو الجنة لتُعبر عن كلام الله؟! أو فهم من قول الله، عز وجل، لموسى عليه السلام، عند الشجرة: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص: ٣٠]، أن الله خلق حُروفًا وأصواتًا في الشجرة لتُعبر عن كلامه؟!

والله لو حلف حالف بين الرُكن والمقام أن هذا لم يخطر لهم ببال، ولا دار لهم بخيال، ما حنث؛ هذا تكلف مذموم، ما حملهم عليه إلا المقدمات الفاسدة.

قوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}: دلت الآية على إثبات الكلام لله، لأن النداء نوع من أنواع الكلام. ودلت أيضًا على إثبات أن كلامه مُتعلق بمشيئته لقوله: {ويوم}، فإنه كلام سيقوله الرب يوم القيامة لهؤلاء المشركين.

فتبين من هذه الآيات المحكمات، والدلائل البينات، أن مُعتقد أهل السنة والجماعة في كلام الرب عز وجل مبناه على ناطق الكتاب. وستأتي أدلة من السنة.

أما الضالون في هذا الباب فهم كُثر؛ منهم من هم من أهل القبلة، ومنهم من ليسوا من أهل القبلة؛ بل من الملاحدة، وسنذكر مقالاتهم الباطلة على سبيل الإجمال، لكي نعرف نعمة الله علينا بالاعتصام بنُصوص الكتاب والسنة:

مقالة الفلاسفة: والمقصود هنا: الفلاسفة الذين تظاهروا بالإسلام، ورُبما يُطلق عليهم "فلاسفة الإسلام"! وليس في الإسلام فلسفة، لكنهم أرادوا أن يكسوا فلسفتهم اليونانية بلبوس الإسلام، وعبارات الدين؛ كابن سينا، والفارابي.

قالوا: إن كلام الله فيض من العقل الفعال على بعض النُفوس الزاكية، يُوجب لها تهيؤات وتصوُرات تقوى وتشتد حتى تُصبح كلامًا تسمعه الآذان.

ولعلهم يجعلون "العقل الفعال": ما يقابل الرب والإله عند أهل الأديان، و"النفوس الزاكية": أي نفوس الأنبياء والمُرسلين، والأولياء والصالحين.

و"الفيض": ما يقابل الوحي!

ولا حاجة للتعقيب على مقالتهم؛ فهو كُفر صُراح، لا يخفى على مؤمن.

مقالة الاتحادية: وهم أصحاب وحدة الوُجود من الصوفية؛ كابن عربي، وابن الفارض وابن سبعين، والقونوي، ومن كان على طريقتهم.

قالوا: كل كلام في الوُجود كلام الله! وهو فرع عن عقيدتهم الكُفرية الخبيثة: (أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى، ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة)[١]. هذه عقيدة أصحاب وحدة الوُجود. حتى قال ابن عربي:

ألا كل قول في الوجـــود كلامـــه ... ســـواءً علينـــا نثـــره ونظامـــه[٢]

فأي صوت يسمعونه يعتبرونه كلام الله، كأصوات الطيور والحيوانات والآلات، وأزيز الطائرات، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا. ويُذكر أن أحدهم كان على المنبر فنعق غُراب على جدار المسجد، فخر مغشيًا قائلًا: لبيك لبيك! هكذا تتلاعب بهم الشياطين.

---

[١] مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٢/ ١٤٠).

[٢] الفتوحات المكية:(٤/ ١٤١).

مقالة الجهمية والمعتزلة: الجهمية لا يُثبتون لله أسماء ولا صفات، فلا يُثبتون صفة الكلام لله عز وجل، ويقولون: إن الكلام الذي أضافه الله إلى نفسه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، لا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف. لأنهم يُنكرون أن يقوم به سبحانه وتعالى صفة ثُبوتية. والمعتزلة مثلهم.

مقالة الصفاتية: من الكلابية والأشاعرة والماتريدية، ومن قاربهم. قالوا: كلام الله هو المعنى القديم القائم في ذاته. وأما الحُروف والأصوات فهي مخلوقة، ليست صفة. قالت الكُلابية: هي حكاية عن كلام الله. وقالت الأشاعرة: هي عبارة عن كلام الله. فهم مُتفقون على أن الحُروف والأصوات المسموعة ليست كلام الله وإن تفاوتت عباراتهم. ولهذا قال بعض مُحققي الأشاعرة: إنه عند التأمل والتحقيق لا فرق بين مقالتنا ومقالة المُعتزلة. فالقوم، وإن تظاهروا بأنهم يُثبتون الكلام ضمن الصفات السبع، فإنهم في الواقع ما أثبتوها كما أثبتها أهل السنة والجماعة.

فهذا مُجمل أقوال الناس في مسألة كلام الله، عز وجل، والواجب إثبات كلام الله تعالى إثباتًا كما دل عليه ناطق الكتاب وصحيح السنة. وسيأتي لهذا مزيد بسط في كلام الشيخ لاحقًا.